سياسات الإسلام المعاصر: مراجعات ومتابعات لرضوان السيد

مراجعة: بدر الجنيدي*

رضوان السيد. **سياسات الإسلام المعاصر: مراجعات ومتابعات.** ط 2. بيروت: جداول، 2015.
285 صفحة. ISBN 978-614-418-252-9

منذ زهاء قرنين من الزمن تم تدشين عهد النهضة العربي أو عهد الإصلاح على اختلاف مسمياته وشخصياته وإنتاجاته والأسباب الدافعة لانبثاقه، إلا أنه لا يخفى عن الباحث في تطور الأنساق الفكرية ومخرجاتها الأثر الذي تركه في العقل الإسلامي المُمتد إلى يومنا هذا. وإذ سايرنا الطرح القائل بكون مدافع نابليون التي انهال قصفها على مصر محطمة العمران، قد أيقظت الشرق من سباته ليلمح حجم المأساة والبون الشاسع بينه وبين الغرب، ليصير هذا الأخير فاعلا أساسيا في اكتشاف الإسلام من جديد وإبراز المخزون القيمي والإنساني والتشريعي الكامن فيه، كما يبدو جليا في أعمال الإصلاحية الإسلامية. ولا أدل على ذلك من هذا النص الذي نقله رضوان السيد عن محمد رشيد رضا مجيبا أحد سائليه قائلا: «لا تقل أيها المسلم أن هذا الحكم -المقيد بالشورى- أصل من أصول الدين ونحن قد استفدناه من الكتاب المبين ومن سيرة الخلفاء الراشدين لا من معاشرة الأوروبيين والوقوف على حال الغربيين، فإنَّه لولا الاعتبار بحال هؤلاء الناس لما فكرتَ وأمثالك أن هذا من الإسلام»[1].

لقد ظلت هذه النظرة التقديرية والمنفتحة عن الغرب الثقافي حاضرة في ثنايا أعمال التيار الإصلاحي إلى حدود سقوط الخلافة العثمانية وعلمنة الدولة وسقوط أغلب الدول الإسلامية في براثن الاستعمار وانفصال رجالات الإصلاح عن مشروع الدولة الوطنية التي ظل ينظر لها بعين الريبة، مما سبب جرحًا في الجسد المسلم سيدشن للعهد المعاصر للفكر الإسلامي، الذي سيحل فيه سؤال الهوية مقابل سؤال التقدم، ويخبو السؤال الأرسلاني الشهير عن تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، ليحل محله سؤال الندوي المغرق في تمجيد الذات والتبشير بالوعد الإسلامي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لينمو في هذه المرحلة تيار تجريم الغرب وبيان خطورة تهديداته وعدم التمييز بين الجانب الثقافي منه والسياسي، وتستمر هذه النبرة في التصاعد طوال الستينيات والسبعينيات، فاتحة النار على الغرب خارجيا وتيار التغريب داخليا بسبب الاصطدام المرير بين الدولة الوطنية والإسلاميين، لتأتي الثمانينيات بعودة الاعتدال للخطاب الإسلامي نتيجة شيوع التعاطف معه وانتقاله للعمل المعلن في غالبية الدول .

* باحث في الفكر الإسلامي المعاصر، المغرب.

1 رضوان السيد، **سياسات الإسلام المعاصر: مراجعات ومتابعات**، ط 2 (بيروت: جداول، 2015)، ص 201.

بعد هذه التوطئة التي تعد تلخيصا مكثفا لحوار العقل الإسلامي مع الغرب الذي عرف انفتاحًا وانغلاقًا، واتصالاً وانقطاعًا، كما حاول الدكتور رضوان السيد إبرازه والتدليل عليه عبر فصول كتابه **سياسات الإسلام المعاصر: مراجعات ومتابعات** الصادر في طبعته الأولى عام 1997، والثانية عام 2015، حيث يرى مؤلفه أن الكتاب ما زال مُحافظًا على جدته وحيويته، وأن الأطروحة التي استصحبها طوال تحليله لتطور الفكر الإسلامي من مرحلته الحديثة إلى المعاصرة، التي تقول بالقطيعة المعرفية بين المرحلتين، ما زالت تحافظ كذلك على ألقها وتوهجها حيث يعرضها قائلا: «إن الإشكالية الرئيسة في الفكر الإسلامي الحديث كانت إشكاليتا النهضة والتقدم، بينما الفكر الإسلامي المعاصر إشكالياته الأساسية الهوية ومقتضاياتها وأساليب ووسائل حفظها» (ص 9).

و تجدر الإشارة كما نوه الدكتور زكي الميلاد في كتابه **عصر النهضة: كيف انبثق ولماذا أخفق؟** أن هذا الطرح اشتغل عليه بالتوازي كل من الدكتور حسن حنفي من مصر، والدكتور عبد الإله بلقزيز من المغرب، دون الإشارة من قبلهم لأعمال بعضهم البعض، خصوصا أن هذه الأخيرة تنوعت على طوال عقد من الزمن عبر مقالات ومشاركات وكتب وغيرها[2]، كما يسجل عليهم حالة الانتقائية في اختيار النماذج للتدليل على وجود خط الانكسار والتراجع، إذ يمكن قلب المسألة باختيار نماذج أخرى ليصير الفكر الإسلامي المعاصر متقدما عن الحديث، ويعتبر أنه رغم وجاهة الطرح السابق إلا أن الفكر الإسلامي في مرحلتيه عرف تصاعدًا وانحدارًا، انفتاحًا وانكماشًا، إلا أن الصورة العامة توحي بالفشل والنكوصية[3].

يمكن القول أن وعي الإصلاحية الإسلامية بالغرب، كان وعيا غايته التمدن والتقدم، ويظهر ذلك من تطويرها لفكرتين أساسيتين، المنافع العمومية والتنظيمات على يد رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي، التي أطرت الفكر الإصلاحي حتى مظلة المقاصد التي عدت اكتشافًا آنذاك خصوصا عمل الفقيه المالكي أبو إسحاق الشاطبي، ليتم وضع «كل المؤسسات السياسية والاجتماعية في باب الضروريات من أجل بقاء المجتمع، وبذلك اتخذت المسألتان السياسية والدينية أبعادًا جديدة وخلاقة، وذات طابع بنائي، بيد أن هذا التطور غير من علاقات الدين بالدولة والسياسة تغييرًا جذريًّا» (ص 29).

2 زكي الميلاد، **عصر النهضة: كيف انبثق ولماذا أخفق؟** (الرياض: المركز الثقافي العربي والنادي الأدبي، 2016)، ص 158

3 المرجع نفسه، ص 162.

لقد اعتبر اتجاه الإصلاحية الإسلامية مسألة التخلف الحضاري والثقافي والتنظيمي مسألة في الإمكان تجاوزها بالانخراط في العلم والعصر الغربي (ص 30)، مما جعله يوظف عدة آليات كالتطهرية الوهابية في العقائد والتأويل المقاصدي والمصلحي لنصوص الشرع .

ظل هذا التفاعل قائما كما أسلفت إلى غاية سقوط الخلافة الإسلامية واستعمار الدول الإسلامية وقيام الدولة الوطنية وانفصال النخب الإصلاحية عنها، مما أحدث تحولا على صعيدين: الفكري والثقافي، حيث ارتفعت نبرة خطاب الهوية والأصالة؛ والسياسي: الذي تأخر الإنتاج فيه إلى مرحلة لاحقة، مع بعض المحاولات نظرًا للطابع الإحيائي للفكر الإسلامي المعاصر كما يشير إلى ذلك السيد.

إن الملاحظ أن الخطاب الإسلامي المتشح بالدفاع عن الهوية قام على آلية التأصيل أي الرجوع للكتاب والسنة من أجل المدافعة و التحصن، كما اتخذ لنفسه اتجاهات ثلاث:

- اتجاه اثبات الذات والقول بتفوقها على الحضارة الغربية وبيان عوار هذه الأخيرة، مع التبشير بالحل الإسلامي، ويبدو ذلك واضحا من سيل المؤلفات والترجمات الخاصة بالشخصيات العربية الصادر بهذه الفترة (ص 121، 122).
- الاتجاه الثاني: نقد الغرب وحضارته وماديته وصولاً للحكم عليه بالجاهلية، ونجد من أبرز رواد هذا الاتجاه أبو الأعلى المودودي وسيد قطب، وكذا بروز مصطلح الحاكمية في ظل انسحاب تحكيم الشريعة لصالح النظم العلمانية مما سيمهد الطريق فيما بعد لتطور قاموس الخطاب الجهادي.
- الاتجاه الثالث: نقد رؤية الغرب للإسلام من خلال نقد الاستشراق، وربط هذا الأخير بالاستعمار والتبشير، مما فوت على الفكر الإسلامي المعاصر الاستفادة من محاولة إدوارد سعيد رغم الاحتفاء بها، إذ لم تُستغل باعتبارها محاولة نقدية للغرب من داخل الغرب وبأدواته التفكيكية، لتستمر النظرة نفسها التي تجعل الغرب كتلة واحدة، بمُستشرقين ومبشريه وسياسييه، يسلتزم مواجهتهم جميعا بحرب شاملة، خارجيا وداخليا كذلك مع مؤيدي الغرب، مما جعل هذا الاتجاه النقدي يتسم بالضعف واجترار المقولات، وفق ما ذهب إليه السيد (ص 268).

يختم السيد كتابه بمقالة حول كتاب ماكس فيبر الموسوم بـ: **الأخلاق البروتستانتية والرأسمالية**، راصدًا التفاعل معه في الوسطين الغربي والعربي، وكأنه يريد الكشف عن الحيرة التي التبست بالفكر الإسلامي المعاصر بين الاشتراكية والرأسمالية والتي أساسها الواقع وليس النص، فهذا الأخير لا يمكن أن ينفتح إلا في ظل المناخ التاريخي الخاص والعام، دون الربط بين العقدي والاقتصادي، يأتي هذا الختم في نظري كمحاولة تطبيقية واستشرافية بعدما خصص

الكاتب فصولا لبحث القضايا العالقة والحارقة كالديمقراطية والعدل والشورى والدولة وحقوق الإنسان مما شغل أذهان الإسلاميين المعاصرين.

يمكن اعتبار هذا الكتاب كجولة مختصرة في رحاب الفكر الإسلامي المعاصر وعوامل ظهوره وقضاياه، كما يعد رصدا لتفاعل العقل الإسلامي طوال قرنين من الزمن مع الغرب انفتاحًا وانغلاقًا، حسب المنعطفات التاريخية والصراعات السياسية والاجتماعيّة والاقتصاديّة التي عرفتها الرقعة الإسلامية، حيث استنجد في عصر الإصلاحين بطوق المقاصد لتحديث الدولة والنظم الاجتماعية والفكر الديني، ليعود عصر الصحوة لمنهج التأصيل الذي سيبلغ أشده في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين معبرًا عن خيبة أمله في الغرب وكذا في الدولة الوطنية التي تسربلت بالزي القومي العلماني، ومنغلقا على ذاته ومطورًا في شق منه خطابًا ثوريًّا جهاديًّا يرى ضرورة المنازلة للانعتاق والدفاع عن الهوية، لتهب رياح الثمانينيات مشرعة الأبواب لخطاب الصحوة في ظل استتباب الأجواء له وانتشاره وكسبه للتعاطف الشعبي وانتقاله من السرية للعلنية لينفتح مرة أخرى على المقاصدالشرعية في القضايا الكبرى، والقياس في القضايا الفرعية والجزئية، مع دوام استصحاب النزعة التأصيلية (ص 128)، هذه التوليفة أيضا وصلت بالفكر الإسلامي المعاصر لطرق مسدودة خصوصًا بعد الارتبارك الذي عرفته الساحة العربية بعد الربيع العربي.